شرح

العقيدة الواسطية

لشيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

شرحها

الشيخ/ توفيق الصائغ

الدرس السابع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلوات الله وتسليماته وتبريكاته على الرسول الأمين سيدنا وإمامنا وقدوتنا محمد، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحابته ومن والاه، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا هدًى وبصيرةً وعلمًا.

أعتقد أن الكلام انتهى بنا عند قول المؤلف-رحمه الله تعالى-: (**وَهُوَ-سُبْحَانَهُ- قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ فَلاَ عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ، فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ**) إلى أن قال: (**وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**).

إذًا سنبدأ إن شاء الله-تعالى- من هذه القطعة وهي قول شيخ الإسلام-رحمه الله تعالى-: (**وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ** حَيثُ يَقُولُ: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾[الإخلاص: ١-٤]).

وقوله: (وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ).

فالإشارة تدل على قوله في ما قبل هذه العبارة قوله: (**فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ**) وقد قال هذا الكلام وهو يؤصل لطريقة أهل السنة في الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه، فالإيمان بما وصف الله-عز وجل- به نفسه في كتابه هو متضمَّن سورة الإخلاص التي هي:

﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[الإخلاص: ١]والتي كما ذكر المصنف-رحمه الله تعالى- تعدل ثلث القرآن.

لماذا تعدل سورة الإخلاص ثلث القرآن؟

تعدل الثلث؛ لأن القرآن إما قصص وإما أحكام وإما عقائد، وقد اختُصَّت هذه السورة على قصر مبناها وعظيم معناها، اختصت ببيان جزء الاعتقاد وهو الأمر المتعلق به-سبحانه وتعالى-، فعلى قصرها تضمنت توحيد الاعتقاد والمعرفة، وتضمنت ضد التوحيد، يعني اشتملت على بيان الضد للتوحيد وهو نفي الكُفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل عن ربنا-سبحانه وتعالى-، فهذه السورة كما أثبتت فقد نفت، أثبتت لله-تعالى- الأحدية والصمدانية في قوله: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾[الإخلاص: ١-٢]،

ونفت عن الله-سبحانه وتعالى- الولد ونفت له الشبيه والنظير والنِّد في قوله-تعالى-: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص:٣-٤] فعلى قصرها تضمنت المبدأين العظيمين الذيْن سَرَيا معنا في كل أمور التوحيد وهو مبدأ النفي والإثبات وهو أيضًا المتضمَّن في شهادة التوحيد: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، أو في كلمة الحق التي هي: لا إله إلا الله، ففيها النفي والإثبات.

إذًا سورة الإخلاص تضمنت توحيد الاعتقاد والمعرفة، وتضمنت نفي الكفء، وهو متضمن نفي التشبيه والتمثيل، وتضمنت أيضًا نفي الولد عن الله-سبحانه وتعالى-، وفي هذا ردٌّ على اليهود والنصارى، أما اليهود؛ فلأنهم أثبتوا لله-سبحانه وتعالى- الولد، قالوا: عزيرٌ ابن الله، والنصارى أثبتوا لله-تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا- أثبتوا أيضًا لله الولد فقالوا: المسيح ابن الله، وفيه رد أيضًا لطائفة ثالثة، من هم؟

مشركي العرب، ماذا قال مشركو العرب عن الملائكة؟ قال المشركون: الملائكة بنات الله، فنفي الولد عن الله-سبحانه وتعالى- ردٌّ على اليهود وعلى النصارى وعلى المشركين، إذًا هذه السورة تضمنت توحيد الاعتقاد والمعرفة، تضمنت النفي، نفي التشبيه والتمثيل، تضمنت أيضًا نفي الولد عن الله-سبحانه وتعالى-، وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي كما يقول أهل العلم-رحمهم الله تعالى-.

قال-رحمه الله-: (**وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**).

وكون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن فهذا إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة-رضي الله تعالى عنه- أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: «**إنها تعدل ثلث القرآن**».

وهنا مسألة لطيفة يذكرها أهل العلم: كونها تعدل ثلث القرآن، هل معنى هذا أنه مُغنٍ قراءتها عن قراءة ثلث القرآن، وأن من كررها ثلاثًا اكتفى بذلك عن قراءة القرآن؟

المسألة تأتي معنا في مثل قول النبي-صلى الله عليه وسلم-: «**من صلى الفجر في جماعة كأنما قام الليل**» هل معنى هذا أن التشبيه من كل وجه؟

لا شك أنه لا يمكن أن يكون من كل وجه، ويفوت الإنسان من قراءة ثلث القرآن بالاكتفاء بقراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ١] شيءٌ كثير، على الأقل في بيان الأحكام والعقائد وكثرة الحروف المتلوة التي يثبت بها الحسنات ففي كل حرفٍ حسنة كما قال النبي-صلى الله عليه وسلم-: «**لا أقول ألف لام ميم حرف، ولكن ألفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميمٌ حرف**» والأولى في مثل هذه النصوص أن يجمع الإنسان بين قراءة ثلث القرآن، أو قراءة القرآن كاملًا، وبين هذا الفضل المتضمن في قراءة مثل هذه السورة، أو تكرارها ثلاث مرات

إذًا هي تعدل ثلث **القرآن**؛ لأن معاني القرآن: إما توحيد، وإما قصص، وإما أحكام، وقد اختصت هذه السورة بصفة الرحمن التي فيها التوحيد، فكانت تعدل ثلث القرآن.

قوله-تعالى-:﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[الإخلاص: ١]، أي قل يا محمد، ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[الإخلاص: ١] يعني واحدٌ في ذاته-حل وعلا-، وواحدٌ في صفاته، وواحدٌ في علوه، فكل ما يختص به الله-سبحانه وتعالى- هو فيه واحد، لا شريك له ولا ند له، ولا مثيل له ولا نظير له.

وسبب نزول هذه السورة المباركة هو: أن المشركين جاءوا إلى النبي-صلى الله عليه وسلم- كما أخرج أحمد من حديث أبي بن كعب قالوا له: يا محمد، انسب لنا ربك، فأنزل الله-تعالى-: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾[الإخلاص: ١]، هذا هو نسب الله، يعني لم يلد ولم يولد، هم يريدون نسبةً إلى الله-تعالى- تنتهي بسلسلة الآباء، والله-عز وجل- ليس له والد ولم ينتج عنه ولد، فنسبه ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾[الإخلاص: ١-٤].

وفي قوله-تعالى-: قل يا محمد، دليل على أن واسطة البلاغ هو النبي-عليه الصلاة والسلام-، ومعنى: أحد، أي متفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وكل ما يصدر عنه.

قلت لكم: أن في قوله: ﴿**قُلْ**﴾ في هذه الجملة فقط دليل على أن النبي-صلى الله عليه وسلم- مبلِّغٌ عن الله-جل وعلا-، وأنه ليس متفردٌ من عند نفسه-صلى الله عليه وآله وسلم-.

هذا الكلام عن أحديته-جل وعلا-، ثم ﴿**اللَّهُ الصَّمَدُ**﴾ الصمد في المعنى هو السيد الذي انتهى إليه السُؤدَد، هذا من حيث المعنى العام، وأما في السورة فتباينت آراء المفسرين وكلها تصدر عن معنى واحد، يعني من المفسرين من قال: إن الصمد هو السيد الذي له المنتهى أو النهاية في السُؤدَد، هذا يليق بربنا-سبحانه وتعالى-.

وآخرون قالوا: إن الصمد معناه هو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها ومسائلها، فحين تلم به الملمات لا يلجؤون إلا إليه-سبحانه وتعالى- وهذا أيضًا معنى يستقيم ويحتمله السياق القرآني ويساعد عليه النص.

وآخرون قالوا: إن الصمد هو الذي لم يلد ولم يولد، وهذا الكلام منسوب للربيع بن أنس وهو كلامٌ حق، وقد يكون أولى ما ذهب إليه المفسرون؛ لأنه من باب تفسير القرآن بالقرآن؛ ولذلك جنح إليه الإمام ابن جرير في تفسيره.

إذًا الصمد هو الذي له السؤدد التام، أو الذي تصمد إليه الخلائق في حاجاتها، أو هو الذي لم يلد ولم يولد.

ومن أقوال المفسرين كذلك: أن الصمد هو الذي لا جوف له، ولا تناقض بين هذه التفسيرات

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ١-٤].

تارةً ينفي الله-سبحانه وتعالى- عن نفسه الصاحبة والولد كما نسب إليه المشركون الصاحبة، وهو مبالغة في نفي الولد، فإنه من لم تكن له صاحبة فبطريق الأولى أنه ليس له ولد، فنفى-سبحانه وتعالى- عن نفسه أن يكون قد نتج له ولد، أو أنه ناتجٌ عن ولادة، فهو-سبحانه وتعالى- لم يلد ولم يولد، متفردٌ- جل وعلا-، وإلى هذا الحد ينبغي أن ينتهي الإنسان؛ لن الله-جل وعلا- لا تدخل عليه الأقيسة، فليس صحيحًا ولا مستقيمًا أن يقول المرء مثلًا: كيف للعقل أن يصدق أن شيئًا لم يتصل بولادة ولم ينتج عنه ولد؟ نقول: الله-سبحانه وتعالى- فوق العقل، وفوق الإدراك، وكل ما طرأ ببالك، فالله بخلاف ذلك-جل جلاله-.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ قلت لكم هذا فيه رد على اليهود والنصارى والمشركين.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي لم يكن له كفؤٌ أو شبيهٌ أو مشاركٌ أو مثيلٌ وهذا فيه نفي التشبيه ونفي التمثيل عن ربنا-سبحانه وتعالى- وإثبات التفرد والكمال من كل وجه.

وفي قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ هذا على غرار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[الشورى:١١] وهذه قاعدة عامة في جميع صفاته-سبحانه وتعالى-، بل في جميع ما يليق به-جل وعلا-.

قال-رحمه الله تعالى-: (وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلاَصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ*اللَّهُ الصَّمَدُ*لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ*وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص: ١-٤]، وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ علْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[البقرة: ٢٥٥]).

ذكر لنا في الابتداء سورة الإخلاص، ثم أيضًا قال لنا: أنه يدخل في هذا ما وصف الله به نفسه في أعظم آيةٍ من كتاب الله، وقوله: (أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ) ثبت بهذا الحديث الصحيح من حديث أبي بن كعب-رضي الله تعالى عنه- أن النبي-صلوات الله وسلامه عليه قال لأُبي: «**يا أبا المنذر، أتدري أي آيةٍ في كتاب الله أعظم؟ فقال: الله ورسوله أعلم، فكرر عليه النبي-صلى الله عليه وسلم- السؤال، فكرر أبي نفس الرد قال: الله ورسوله أعلم، ثم كرر عليه، فقال أبي: هي آية الكرسي ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾**[البقرة: ٢٥٥]، **فقال له النبي-صلى الله عليه وسلم-: ليهنك العلم يا أبا المنذر، ليهنك العلم يا أبا المنذر**».

إذًا صفات الله–سبحانه وتعالى– وقاعدة أهل السنة النفي والإثبات هي متضمن الآية التي هي أعظم آية في كتاب الله وهي آية الكرسي، قال الله–تعالى– فيها: ﴿اللَّهُ﴾ الاسم العلم، وبعضهم قال: الاسم الأعظم؛ لأن ما بعده دائمًا يأتي صفةً له ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[البقرة: ٢٥٥]، ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[النور:٣٥] ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾[الأنعام:٩٥]، إلى آخره.

﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[البقرة: ٢٥٥] هذه الآية العظيمة اشتملت على دلائل عظمة الله–سبحانه وتعالى– وهي تسع صفاتٍ:

- صفة الألوهية.
- صفة الحياة.
- صفة القيومية.
- صفة الملك.
- صفة العلم.
- صفة المشيئة.
- صفة القدرة.
- صفة العلو والعظمة.

أيضًا هذه الآية اشتملت على تسع صفاتٍ للمولى–سبحانه وتعالى– إما بالنص وإما بالتضمن، الألوهية والحياة، القيومية والملك، العلم والمشيئة، القدرة والعلو والعظمة.

- أما الألوهية في قوله: ﴿اللَّهُ﴾ الله اسم، لكن تؤخذ منه صفة الألوهية؛ لأنه مر معنا أن الأسماء يؤخذ منها الصفات، إذًا الأسماء متضمنة أصلًا للصفات، الاسم متضمن للصفة، الأسماء بأنها توقيفية، لكن باب الصفات أوسع من باب الأسماء، إذًا الألوهية في قولنا: ﴿اللَّهُ﴾.
- الحياة في قوله–تعالى–: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هذه الصفة وردت في مواضع من القرآن، مثلًا في آل عمران قال الله–تعالى–: ﴿الم*اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[آل عمران:١–٢]، وفي الفرقان قال الله–تعالى–: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨] وفي طه قال–سبحانه وتعالى–: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾[طه:١١١] وفي غافر قال الله: ﴿هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ﴾[غافر:٦٥] فوردت هذه الصفة في مواضع من كتاب الله–سبحانه وتعالى– وهي دالةٌ على كمال حياته–جل وعلا–،

حياته أكمل حياةٍ-سبحانه-، ذلك أنها حياة غير مسبوقة بعدم، ولا تنتهي إلى عدم، وحياة غيره حياةٌ ناقصة؛ حتى الذين سيكتب لهم الخلود في الدار الآخرة حياتهم ناقصة لأنها مسبوقةٌ بالعدم، ثم لحقها العدم وهي الحياة الأخرى أي الموت، ثم أحياهم الله-سبحانه وتعالى- وكتب لهم البقاء والأبدية في الجنة.جعلني الله وإياكم منها.

حياة غيره أيًا كان حياةٌ ناقصة، وحياته-سبحانه وتعالى- كاملة؛ ذلك لأنها لم تُسبق بعدم ولا يلحقها عدم؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ ذلك أنه واهب الحياة للحيوانات الأخرى، هو واهب الحياة.

له الصفة الأولى :الألوهية ثم صفة ثانية الحياة.

- والصفة الثالثة القيومية: فهو قائمٌ-جل جلاله بنفسه ؛ قيوم لغيره . فقيامه بذاته صفةٌ ذاتية وإقامته لغيره صفةٌ فعلية، وباجتماع الحياة والقيومية يكون كما قال الأئمة: عليهما مدار الأسماء الحسنى، إليهما ترجع مدار الأسماء الحسنى كلها، الحياة والقيومية. ولذلك قال بعض أهل العلم: إن القيوم اسم الله الأعظم.

إذًا الصفة الأولى الألوهية، ثم الحياة، ثم القيومية.

- الصفة الرابعة : الملك، وهل ورد لفظ الملك في آية الكرسي؟ هل هناك تصريح؟

ليس هناك تصريح، إذًا من أين أخذنا صفة الملك؟ من أين أخذنا هذه الصفة؟

من قوله-تعالى-:﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فهو-جل جلاله- مالكٌ، وهو-سبحانه- ملكٌ، وهو-سبحانه- مليك.

أما مالك وملك فقد وردا بقرائتين في سورة الفاتحة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ*مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[الفاتحة:٢-٤] كما في قراءة ورش، و ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ كما في قراءة حفص، ولكليهما معنى يتمم معنى الملك الذي يستحقه-سبحانه وتعالى.

وأما مليك فقد ورد في قوله-تعالى-: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾[القمر:٥٤-٥٥].

إذًا الألوهية والحياة والقيومية والملك والعلم.

- والعلم ؛ الله-سبحانه وتعالى- له العلم الشامل الكامل، يعلم ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما، ويعلم ما كان وما هو كائن وما لم يكن؛ وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لا يعزب عن علمه مثقال ذرةٍ

في السماوات ولا في الأرض، يعلم السر والجهر والنجوى ؛ لا يعزب عن علمه شيء، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩]، علمه شامل ومحيط بكل شيء ، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ؛ لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه شيءٌ-سبحانه وتعالى- لكمال علمه. علم كل شيئ

الصفة التي بعدها: المشيئة. ثم القدرة ثم العلو ثم العظمة

- أما القدرة فنأخذها من قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا ﴾ هي معنى قول الله-جل وعلا-: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٌ ﴾
- وأما العلو ؛ لقوله وهي العلي العظيم فهو نعني به علو القدر وعلو القهر وعلو الذات، ولعله يأتي معنا حديث عن العلو.

العلو، كل أنواع العلو له-سبحانه وتعالى- فهو علي بذاته مستو على عرشه كما في حديث الجارية : " أين الله قالت في السماء " في السماء المبنية أو في جهة العلو ؛ وله علو القهر، فهو عالٍ على كل أحد سبحانه وتعالى قاهر له والخلق كلهم تحت أمره وتحت قهره وسلطانه، ولو علو القدر، له العظمة و الكبرياء والجلال والجمال، فقد جمع العلو من أطرافه سبحانه وتعالى ؛وله العظمة جلَّ ثناؤه.

هذه الصفات التسع كلها وردت في هذه السورة العظيمة أو في هذه الآية العظيمة التي استحقت أن تكون أعظم آية في كتاب الله-جل وعلا-.

- وفيها من العلم مثل قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ أي لا أحد يشفع عند المولى سبحانه وتعالى إلا أن يأذن الله وإلا أن يرضى له

إذاً شرطا الشفاعة : الإذن للشافع أن يشفع والرضا عن المشفوع، وفي الآية أيضًا قوله-تعالى-: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ الله-سبحانه وتعالى- يتحدث هنا فقط عن عظمة الكرسي؛ ليدل به على عظمة خلقٍ من خلقه ليس هو أعظم الخلق، يعني الكرسي ليس أعظم من العرش، ذهب بعضهم إلى أن الكرسي هو العرش، وهذا خطأ، الكرسي شيء، والعرش شيءٌ آخر، هذا الكرسي وسع السماوات والأرض - وسع يعني أحاط - ومع سعته للسماوات والأرض، إلا أنه يتصاغر أمام خلقٍ آخر وهو العرش، طبعًا ابن عباس يقول: الكرسي هو موضع القدمين، والدليل على أن الكرسي صغير أمام العرش قول النبي-عليه الصلاة والسلام- كما في حديث أبي ذر: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقةٍ من حديدٍ ألقيت بين ظهري فلاةٍ من الأرض» سبحان الخالق،

الكرسي الذي وسع السماوات والأرض مثل حلقة حديد أُلقيت بين ظهري فلاةٍ بالنسبة للعرش، إذًا العرش أعظم خلقًا من الكرسي، فإذا كان الكرسي بهذه المهابة وبهذا القَدْر، والعرش أعظم منه، فإننا نستدل بعظم هذا الخلق على عظمة الخالق الذي خلق هذه العوالم الكبيرة-سبحانه وتعالى-.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ أي لا يُعييه ولا يُكرثه ولا يُثقله ولا يُعجزه ولا يؤوده حفظ السماوات والأرض وحفظ ما بينهما، ولما كانت هذه القطعة دالة على عظيم حفظه، كان قارئ هذه الآية العظيمة محفوظًا بحفظ الله-جل وعلا- كما ثبت بذلك الحديث من حديث أبي هريرة-رضي الله عنه وأرضاه- في ذكر شيءٍ من فضل هذه الآية العظيمة وهي آية التحصين، في صحيح البخاري أن أبا هريرة-رضي الله تعالى عنه- قال: «**وكَّلني رسول الله-صلى الله عليه وآله وسلم- بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام فأخذته، وقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، قال: دعني، فإني محتاجٌ وعلي عيال، لا أعود، قال أبو هريرة: فرحمته وخلَّيت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ قال: قلت: يا رسول الله شكا حاجته وعياله فرحمته وخليت سبيله، قال: أما إنه قد كذبك وسيعود، فعرفت أنه سيعود؛ لقول النبي-صلى الله عليه وسلم-: سيعود، فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، قال: دعني، فإني محتاجٌ وعلي عيال، لا أعود، قال أبو هريرة: فرحمته وخلَّيت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟ قال: قلت: يا رسول الله شكا عيالًا وحاجةً فرحمته فخليت سبيله، قال: أما إنه قد كذبك وسيعود، قال: فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله-صلى الله عليه وسلم- وهذه آخر ثلاث مراتٍ تزعم فيها أنك لا تعود، ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلماتٍ ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي ﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ حتى تختم الآية، فإنك لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تُصبح**» فالنبي-عليه الصلاة والسلام- لما أصبح لقي أبا هريرة قال: «**أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال؟ قال: قلت: لا، قال: ذاك الشيطان**» والحديث بطوله أخرجه الإمام البخاري معلقًا بصيغة الجزم وقد رواه النسائي في عمل اليوم والليلة.

إذًا هذه الآية التي اشتملت على هذه التسع صفات العظيمة وذكرت جليل قدرة الله-سبحانه وتعالى- في حفظ السماوات والأرض وما بينهما، هي من الحوافظ التي تحفظ الإنسان والتي ينبغي له أن يقرأها إذا أخذ مضجعه وفي أدبار الصلوات إلى آخره.

ذكر الإمام آية الكرسي؛ لما تضمنت من ذكر صفات المولى-سبحانه وتعالى-، وهذا هو مناسبة إيرادها في العقيدة الواسطية، ثم بعد أن ذكر الإخلاص وذكر آية الكرسي، ذكر أيضًا قول الحق-سبحانه وتعالى-: ﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم**﴾[الحديد: ٣].

طبعًا ﴿**هُوَ**﴾ إشارة إلى المولى-سبحانه وتعالى-، ﴿**الأَوَّلُ**﴾ أي الذي ليس قبله شيء كما فسرها النبي-صلى الله عليه وسلم- في حديث: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، والآخر فليس بعدك شيء، والظاهر فليس فوقك شيء، والباطن فليس دونك شيء**» أخرجه الإمام مسلم.

وتسمية الكتاب والسنة لله بـ - الأول - ؛ للدلالة على أزليته-جل وعلا- هي التسمية الصحيحة، وهو الاسم الوارد في الكتاب وفي السنة، وأما تسميته-سبحانه وتعالى- بالقديم، فهذا لم يرد به نص.

قد يوصف-سبحانه وتعالى- بالقدم؛ للدلالة على أزليته قديمًا، لكنه لا يُسمى به؛ لأن الأسماء كما مر معنا توقيفية، ومما يدل على استخدام الأئمة لهذا الوصف، قول الإمام ابن القيم-رحمه الله تعالى- في نونيته:

وهــو القــديم فلــم يــزل بصــفاته سبحانه متفردًا بـل دائـم الإحسـان

إذًا الأول الذي ليس قبله شيء، وأعظم التفسير ما يكون فيه تفسير القرآن بالقرآن فإن لم يجد المرء فتفسير القرآن بالسنة.

﴿**وَالآخِرُ**﴾ كذلك الذي ليس بعده شيء.

(**وَالظَّاهِرُ**) أي العالي المرتفع الذي ليس فوقه شيء.

﴿**وَالْبَاطِنُ**﴾ أي الذي ليس دونه شيء، والباطن هنا أي بعلمه فلا يحجبه شيء،

إذًا الأول والآخر والظاهر والباطن، هذه أسماء أربعة متقابلة، اسمان منهما: الأول والآخر؛ للدلالة على أزليته وأبديته-سبحانه وتعالى-، واسمان وهما: الظاهر والباطن؛ لعلوه وقربه-جل وعلا-.

قال: (﴿**هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيم**﴾[الحديد: ٣]) فأثبت لربنا-سبحانه وتعالى- العلم بكل شيء، وهذا لفظ عام، أي أنه لا يعزب عنه شيء، ولا يخفى عليه شيءٌ-سبحانه وتعالى-.

إذًا الآية دلت على أزلية الله-سبحانه وتعالى-، سبْقه-جل وعلا- لكل مخلوق، وأفادت أيضًا دوامه وبقاءه وآخريته، وأفادت علوه وارتفاعه وفوقيته، وأفادت قربه ودنوه وإحاطته وسعة علمه-جل وعلا-، وأنه لا يعزب عنه شيء، وفي

الآية ردٌّ على طوائف الضلال الذين زعموا أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، وهذا القول يُنسب للمعتزلة والرافضة، فيه رد على المعتزلة وعلى الرافضة، وفيه رد أيضًا على من يزعم أن الله يعلم الكليات، لكن لا يعلم التفاصيل والجزئيات، بل هو يعلم كل شيءٍ-جل وعلا-، ما دق وما عظم، وما ظهر وما بطن، وما صغر وما كبر.

قال: (وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ:﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨]).

التوكل هو: التفويض، هذا من حيث مطلق معناه اللغوي.

وأما حقيقته الشرعية: فالمعنى هو اعتماد القلب على الله في جلب ما ينفع ودفع ما يضر، ومن أسمائه-سبحانه وتعالى- الوكيل، أي الذي يكفي عبده ويقوم بأموره وشؤونه-جل وعلا-، وتوكل الله، التوكل فرض، فلا يجوز صرف التفويض والتوكل في جلب النفع ودفع الضر والاعتماد إلا عليه-سبحانه وتعالى- وهو من أعمال القلب.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨].

الحي كما مر معنا اسم من أسماء الله يدل على صفةٍ عظيمةٍ من صفاته وهي صفة الحياة، وهذه الصفة من أعظم الصفات وعليها مدار كثير من الصفات والأسماء؛ ولذلك نجد أن الأشاعرة مثلًا الذي لا يُثبتون لله إلا سبعة صفات يجعلون منها صفة الحياة؛ لأنه يصدر عنها بقية الصفات.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨].

إثبات الحياة لله-سبحانه وتعالى-، وارد أن يُثبته كل أحد، لكنه ختم بقوله: ﴿الَّذِي لا يَمُوتُ﴾ ليدل على بقاءه واستمراره-جل وعلا-، فهو حيٌّ حياةً دائمة لا يلحقها فناء ولا يلحقها زوال.

قال المؤلف-رحمه الله تعالى-:وقوله (﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[سبأ: ١]).

هنا أثبت لله-سبحانه وتعالى- صفتي **الحكمة** من اسم الحكيم، والحكيم: الحاكم بين خلقه، وهذا الحكم بين الخلق يكون إما بالأمر الديني الشرعي، وإما بالأمر الكوني القدري، فالله له الحكم كله قدرًا وشرعًا، ودنيا وآخرة، فهو حكمٌ شاملٌ عامٌّ كامل، قال الله-تعالى- فيما يتعلق بالحكم الشرعي، قال: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ**﴾[الشورى:١٠] وقال: ﴿**فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ**﴾[النساء:٥٩] فالحكم الشرعي له-سبحانه وتعالى-، له أن يأمر فيُطاع، وله أن يحكم فيُذعن العبد بأمره وحكمه-جل وعلا-، وله الحكم القدري الذي يجري على كل أحد، فإذا حكم على أحدٍ بالموت مات، وإذا حكم عليه بالمرض والعلة، اعتل ومرض، فحكمه نافذ، لا معقِّب لحكمه-جل وعلا-.

ومن متضمَن قوله: ﴿**الْحَكِيمُ**﴾ أنه المُحكِم المتقن في صنعته للأشياء، الذي أتق كل شيءٍ خلقه، فهو مُحكمٌ لخلقه-سبحانه وتعالى-، وهو حكيمٌ يضع الأمور في مواضعها؛ لأن الحكمة في مطلق معناها وضع الشيء في موضعه، فهذه الصفات جميعها تليق به-سبحانه وتعالى-.

قال: وقوله تعالى (﴿**وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾[سبأ: ١]) والخبير ليست العلم وإنما وصف أدق من العلم؛ لأن الخبرة هي العلم ببواطن الأمور، فالخبرة وصفٌ زائدٌ عن العلم، تدل على عمق هذا العلم، الله-سبحانه وتعالى- له العلم الظاهر، وله العلم الباطن، بل له علم المآلات، فهو يعلم ما تؤول إليه الأمور-سبحانه وتعالى-.

قال المؤلف: (﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[الحديد:٢]).

اشتملت هذه الآية الدلالة على علم الله-سبحانه وتعالى- بكل شيء، فهو يعلم ما يلج في الأرض، وما يلج في الأرض كثير، يلج في الأرض الموتى الذين يُدفنون، يلج في الأرض الماء الذي ينزل من السماء ويتسرب إلى قعر الأرض يعني القطر والمطر، يلج في الأرض البذور، الكنوز، كل ما يلج في الأرض، كل ما يدخل فيها يعلمه-سبحانه وتعالى- ولا يخفى عليه.

وفي المقابل أيضًا يعلم ما يخرج من الأرض، ويخرج من الأرض النبات، يخرج من الأرض المعادن سواءً السائلة في مثل أيامنا هذه من الغاز والبترول، أو المعادن الصلبة كالذهب والفضة والنحاس والألماس وغير ذلك، ما يخرج من الأرض من نبات ومعادن وحتى الماء الذي يخرج في المياه الجوفية يعلمه-سبحانه وتعالى-، يعلم عدَّه وحقيقته ويعلم تفاصيل التفاصيل فيه، لا يعزب عنه شيءٌ-جل جلاله-.

إذًا يعلم ما يلج في الارض وما يخرج منها، ويعلم ما ينزل من السماء، وينزل من السماء المطر، وينزل من السماء الملائكة، وينزل من السماء الرحمة، كل هذا يعلمه-سبحانه وتعالى-، ويعلم أيضًا ما يعرج فيها، وما يعرج إلى السماء مثل: الأعمال، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر:١٠]

يعرج إلى السماء الملائكة الذين يكونون مع بني آدم فيعرجون بأعماله، كل ما يعرج إلى السماء يعرفه-سبحانه وتعالى-، ونستطيع أن نوسّع العبارة اليوم فنقول: إن مما يعرج إلى السماء يعني إلى العلو، الطائرات، فيعلمها-سبحانه وتعالى- ويعلم ما فيها.

قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ هذه معية الله-جل وعلا- وهي معية عامة، فيها المعية العامة وفيها المعية الخاصة، أما المعية العامة فهي معية العلم والإحاطة، فالله-سبحانه وتعالى- يعلم معكم بعلمه، وهو-سبحانه وتعالى- يمكن أن يكون مع المؤمنين والمتقين والمحسنين معيةً خاصة، وهذه المعية الخاصة مقتضاها التأييد والحفظ والصيانة والرعاية وهي لا تكون إلا للخُلَّص من أوليائه-سبحانه وتعالى- ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾[النحل:١٢٨].

قال-سبحانه وتعالى-: ﴿وَعِندَه مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾[الأنعام:٥٩]، مفاتح الغيب أي خزائن الغيب، أو الطرق الموصلة إلى علم الغيب، هذه المفاتح لا يعلمها إلا هو، وهذه من جملة الأمور التي اختص بها-سبحانه وتعالى-، فمن ادَّعى علم الغيب حكمنا بكذبه؛ لأن علم الغيب من خصائص المولى-جل وعلا-، وقد يقول قائل: إن البعض عنده جزء من علم الغيب، كيف يعني جزء من علم الغيب، يعني قد يكون إنسان مثلًا معنا هنا وهو يتابع بثًّا حيًّا على الهواء مباشرة من إحدى الدول البعيدة، فهو يعرف بحسب ما يتابع تحركات الناس هناك، أو ما يُلقون من خطب أو محاضرات، إلى آخره، فهل هذا يُعتبر من علم الغيب؟ هذا يُعتبر من الغيب النسبي الذي يخفى على البعض ويعرفه البعض، فهو ليس غيبًا مطلقًا، ووسائل العلم الوصول إلى هذا العلم متاحة، فهو غيب من جهة، كنه ليس غيبًا مطلقًا، الله-سبحانه وتعالى- عنده مفاتح الغيب، كل الغيب الذي يخفى على الناس يعرفه، قال الله-تعالى-: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾[الجن:٢٦]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[لقمان:٣٤]، ﴿وَعِندَه مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ومفاتح الغيب هي الخمسة المذكورة في الآية التي تلوتها عليكم، أو في الآية التي ختم الله-عز وجل- بها سورة لقمان﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[لقمان:٣٤] هذه خمس مفاتح الغيب

كيف ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ علم الساعة هذا استأثر الله به.

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ هل يمكن أن يوصف أولئك الذين يُلقون من الطائرات الفوسفور على السحاب، فينزل بالتقاء الفوسفور بالسحاب المطر، هل يمكن أن يوصف بأن هؤلاء يُنزلون الغيث؟ لا يمكن أن يوصف ذلك:

أولًا: لأن تأثيرهم إنما هو بإرادة الله-سبحانه وتعالى-، وقد يتفق أن يقوم هؤلاء بهذه المهمة ولا يحصل نزول المطر، هناك قاعدة مهمة جدًا في هذا الباب، هذه القاعدة تقول: إنه إذا شخَّص الطبيب الداء، وأحسن في اختيار الدواء، فلا يلزم من ذلك حصول الشفاء؛ لأن الإذن بالشفاء من الله-سبحانه وتعالى-، كذلك إذا اجتمع السحرة بعقدٍ ونفث، فأرادوا إصابة فلانٍ من الناس أو فلانة، وعملوا الأسباب لذلك بالاستعانة بالجن والعقد والنفث، هل يتضرر المعني ذكرًا كان أو أنثى؟ لا، حتى يأذن الله بوقوع الضرر، قال الله-تعالى-: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[البقرة:١٠٢] وعليه فلو صنع الإنسان مادة الفوسفور هذه وألقاها على السحب ما لم يأذن الله-تعالى- بنزول الغيث فلن ينزل الغيث، حتى الأمور الطبيعية المنطقية التي تحصل يوميًا هي تحصل بإذن الله-تعالى-، النار محرقة إن أذن الله لها أن تُحرق، والماء مُغرق إن أذن الله له أن يُغرق، إن تخلف إذن الله-سبحانه وتعالى-، فإن الماء يُسلب خاصية الإغراق، والنار تُسلب خاصية الاحتراق، كما في قوله-تعالى-: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[الأنبياء:٦٩] ، وفي قوله-تعالى-: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[الشعراء:٦٣].

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ يعني يُنزله بإرادته-سبحانه وتعالى- ولا يدخل في ذلك عبث الإنسان بالطبيعة أحيانًا؛ لأنه حتى وإن نجح الإنسان في أن يقوم بهذه المعادلة، فهذا ليس من إنزال الغيث العام، الله تعالى يُنزل الغيث بأسبابه هو-جل وعلا- وبأمره.

وما يُقال هنا يُقال في قوله-تعالى-: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ فهل يشارك الله-سبحانه وتعالى- في هذه الصفة الطبيب الذي طوَّر آلته اليوم واستطاع من خلال الأنترا ساوند أو من خلال الأشعة التليفزيونية أن يرى ما في رحم المرأة، وأن يعلم جنس الجنين إن كان ذكرًا أو أنثى، هل يكون قد شارك-تعالى- في هذه الأمور الخمسة التي هي من

علم الغيب والتي استأثر الله بها؟ هل يسمى الطبيب الذي يمكن أن يعرف جنس الجنين، هل يمكن أن يسمى عالمًا لما في الأرحام؛ مشاركًا لله؟

هناك من كتب قال: لا، لماذا؟ نعم ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء:٥٨] لكن أليس الطبيب أصبح عالمًا بما في الرحم، لماذا نقول: ان هذه من الخمسة التي اختص بها الله بها ، أليس صار معروفا اليوم إن كان ذكرًا أو أنثى، كبيرا أم صغيرا ؛ذا نبض أو ليس ذا نبض، سليم أو مشوه

طيب ؛ لأن هذا العلم علم ناقص لما يقول ان الله يعلم ما في الأرحام معناه ان الله أولا يعلم بدون هذه الوسائط ؛هذا الطبيب يعلم من خلال هذا الوسيط، ولو ذهب عنه الوسيط ما استطاع أن يعلم، هذا أمر.

الأمر الثاني: إثبات العلم لله-سبحانه وتعالى- بما في الأرحام، إثباتٌ لعلمٍ كامل، فهو يعلم أن الذي في الرحم صالحًا كان أو طالحًا، ذكرًا أو أنثى، يعلم كم سيعيش، هل سيسقط، هل ستُكتب له الحياة، إلى آخره، فعلمه-جل وعلا- كامل، والعلم الذي علمه هذا الطبيب علمٌ جزئي، وقد يُخطئ، وقد ثبت بالتجربة أن كثيرًا من الناس بُشِّروا بذكران، ثم نتج أناثي، والعكس بالعكس، لكن الله-سبحانه وتعالى- لا يختلف علمه، فعلمه على سبيل الجزم-جل وعلا-، وأيضًا علمه كاملٌ من كل وجه، وما يطَّلع عليه الطبيب، أو ما قد يطَّلع عليه في لاحق الأيام مما قد ينشأ من الاختراعات علمٌ جزئي وليس علم كامل.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ وهذا أيضًا من اختصاص الله-سبحانه وتعالى- بعلم الغيب فهو يعلم ما سيكسبه المرء غدًا، والإنسان بالغًا ما بلغ لا يستطيع أن يعلم ما في غده.

هنا أيضًا ملمح وهو أن البعض قد يكون عنده علم بما سبق، يعني الذي يقرأ في التاريخ يعرف أحداث الحرب العالمية وما كان بين الأمويين والعباسيين، هذا علم سابق مدون يستطيع أن يعرفه، يستطيع الإنسان أن يطلع على ما يحصل الآن مثلًا خاصةً بالبث المباشر، أو بوسائل التواصل، يستطيع أن يعرف وهو في الحجاز ما يحدث في الشام أو في اليمن، كل هذه الأشياء يمكن للإنسان بما آتاه الله من العلم أن يعرف، لكن ما لا يستطيعه إنسٌ ولا جان ولا ساحرٌ ولا كاهن ولا مارد ولا شيطان، ما لا يستطيعه هو أن يعلم ما الذي سيحدث، لا أقول: في غد، وإنما بعد عشر

دقائق، أو بعد ساعة، علم المستقبل اختص الله-سبحانه وتعالى- به ونصَّ عليه هنا في قوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ فهذه اختص الله بعلمها-جل وعلا-.

قال: وقوله-تعالى-: (﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاء وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[الحديد:٢]، وقوله: ﴿وَعِندَه مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]).

يعلم ما في البر أي الصحاري، الصحاري فيها من النباتات الشوكية والبراري والجبال والدواب، كل ما في البر يعلمه-سبحانه وتعالى-، ويعلم ما في البحر من المخلوقات والأعشاب والنباتات والسفن الجواري المشرعات، كل هذه يعلمها-سبحانه وتعالى-.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾ أي كل ورقة تسقط من شجرة في برٍ وبحرٍ وسهلٍ وجبل يعلمها-سبحانه وتعالى-، لا يعزب عنه شيء، كلها واقعةٌ تحت علمه-جل وعلا-.

﴿وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ﴾ يعني ما في حبة سواءً كانت حبةً نابتة أو حبة زرعٍ أو ثمرٍ أو غير ذلك ؛ إنه هو يعرفه-سبحانه وتعالى-.

﴿ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ﴾ الرطب واليابس يشمل ما مضى، قد يكون ما في البحر أو ما في البر أو الورقة، رطب أو يابس؛ لذلك العلماء يقولون: هذا عمومٌ بعد خصوص، بعد ما عدَّد عمَّ ذلك كله فقال: ما في رطب في الدنيا ولا يابس إلا يعلمه-سبحانه وتعالى- ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾، والكتاب المبين هنا إشارة إلى اللوح المحفوظ الذي فيه كل شيء، أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب، قال: ما أكتب يا رب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى قيام الساعة، وهذا سيمر معنا في مراتب القدر أن الله-سبحانه وتعالى- علم الأشياء، ثم كتبها، ثم يشاؤها-جل وعلا-، ثم يجعل هذه المشيئة واقعًا بأن يخلق هذه المشيئة فتُصبح واقعًا، وهذا يُفضي بنا إلى ذكر مراتب القدر التي أقول أنا دائمًا: أن من ضبطها انضبط عنده الإيمان بالقدر، القدر كما يقول علي أو يُنقل عنه: سر الله، كثير من الناس عندهم إشكاليات في القدر، فالبعض يحتج بالقدر فيقول: لو شاء الله ما ضللت، أنا ضال؛ لأن الله أراد أن أكون ضال -تعالى الله- لكن من انضبطت عنده مراتب القدر أصبح عنده استقرار في هذا الركن من أركان الإيمان.

نلخصها الآن: هي علمٌ كتابة مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجادٌ وتكوين.

العلم أن الله علم كل شيء، كتب ذلك في اللوح المحفوظ، ثم يشاء الله-سبحانه وتعالى- فيتحول المكتوب في اللوح المحفوظ في الوقت الذي شاءه وأراده الله-سبحانه وتعالى- يتحول إلى خلق حين يخلقه الله ويوجده، حتى أكرر لكم هذه الجزئية وجودنا نحن اليوم في ألف وأربعمائة وواحد وأربعين، مكتوب في اللوح المحفوظ قبل خلقنا بخمسمائة ألف عام، لكن متى صرنا موجودين؟ حين شاء الله-سبحانه وتعالى- ذلك قبل عشرين، ثلاثين، أربعين سنة، ولما شاءه، شاء العلم الذي موجود في الكتاب، خلقه فأصبحنا خلقًا سويًا.

إذًا هذه الآية فيها إثبات صفة العلم لله-سبحانه وتعالى-، وفيها الرد على الذين قالوا: إن الله عالمٌ بلا علم، هؤلاء المعتزلة، كلام باطل، وفيها إثبات إحاطة الله-سبحانه وتعالى- وعلمه وأنه لا يخفى عليه شيء، وفيها إثبات أن الله يعلم الكليات والجزئيات وإلا لما ذكر الله هذا التفصيل، يعني ذكر البر والبحر والورق والرطب واليابس؛ ليدلل على أنه يعلم الجزئيات والكليات.

قوله-تعالى-: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾[فاطر:١١] أيضًا يدل على علمه-سبحانه وتعالى- بما في الأرحام وما تضعه الأرحام، وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[الطلاق:١٢]، هذه الآية فيها إثبات القدرة وتمامها لله-سبحانه وتعالى- على ما يليق به، وأن الله قادرٌ على كل شيء، ومن الأخطاء الشائعة على ألسنة الناس قولهم: إن الله على ما يشاء قدير، لا، بل هو على كل شيءٍ قدير، قديرٌ على ما شاء، وقديرٌ على ما لم يشأ، لكن ما يشاءه يريد إيقاعه فيقع، وما لم يشأه لم يمنعه من إيقاعه عجزه-تعالى الله= وإنما لم يقع؛ لأنه لم يشأه، وكونه لم يشأه لا يعني أنه ليس بقادرٍ عليه، بل هو قادر على كل شيء، فلا تلازم، وما يقوله كثير من الناس ويجري على ألسنتهم: إن الله على ما يشاء قدير، هذا من خطأ الألفاظ.

ثم قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[الذاريات:٥٨]) وغير ذلك من الآيات التي ذكرها المؤلف-رحمه الله تعالى- والتي سنعود إليها بالتفصيل.

أسأل الله-سبحانه وتعالى- أن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا وأن يزيدنا هدى وبصيرة وعلمًا، اللهم يا مُعلم إبراهيم علمنا، ويا مُفهم سليمان فهّمنا، اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا ورزقًا واسعًا وقلبًا خاشعًا ولسانًا ذاكرًا.

تقول الأخت: كيف نجيب على سؤال الطفل كيف يرانا الله جميعًا بنفس الوقت؟

نجيب بأن الله ليس كالبشر، البشر هم الذين لا يستطيعون أن يجمعوا بين شيئين، الله قدرة مختلفة عن البشر، إرادة مختلفة عن البشر، ذات مختلفة عن البشر، الله-سبحانه وتعالى- له القدرة أن يرى الناس في الحجاز وفي مصر وفي

الشام في نفس الوقت، كما أن له القدرة-سبحانه وتعالى- الواقفين بعرفة وعدتهم مليونين نسمة، يعرفهم بأسمائهم وصفاتهم وألقابهم وتسلسل أنسابهم، ويعرف عدد الشعرات في أجسادهم، ويعرف آجالهم وأعمارهم وشهاداتهم وأبناءهم وآباءهم، فعلمه مطلق وكامل-سبحانه وتعالى-.

قد لا يُدرك الطفل هذه الأبعاد، لكن يكفي أن يعرف أن الله ذاتًا مختلفة عن ذات الخلق، وقدرة مختلفة عن قدرة الخلق؛ ولذلك يستطيع-سبحانه وتعالى- ما لا يستطيعه الخلق.

جزاكم الله خير وإن شاء الله-تعالى- نُكمل في اللقاء القادم وسأعمد بعد ذلك إلى محاول جمع كلام شيخ الإسلام وعدم الوقوف عند نصه آيةً آية أو حديثًا حديثًا، وإنما نأخذ المعنى العام ونشرح الفكرة التي شرحها شيخ الإسلام حتى نحاول أن ننجز قدرًا أكبر؛ لأننا لو بقينا بالشرح المفصل بهذه الطريقة قد لا نُنجر مراد شيخ الإسلام من هذه الرسالة.

شكر الله لكم وبارك فيكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تم إلقاؤه يوم السبت ١٤ جمادى الآخر ١٤٤١ هـ الموافق ٢٠٢٠\٢\٨